



جيل دولوز

نظرية التعدديات عند برجسون

ترجمة وليم العوطة

المصدر: <http://www.le-terrier.net/deleuze/20bergson.htm>

أريد أن أقترح عليكم بحثًا عن تاريخ كلمة، وهو أيضًا تاريخ محدد ومركّز جدًا. الكلمة، هي التعددية. يوجد استخدام شائع جدًا لهذه الكلمة: مثلاً، أقول تعددية أعداد، وتعددية أفعال، وتعددية حالات الوعي، وتعددية التقويض. تُستعمل التعددية هنا كصفة بالكاد مسمّاة. ولا ريب أنّ برجسون يعبر عنها على هذا النحو غالبًا. ولكن، في أوقاتٍ أخرى، استُعملت هذه الكلمة بالمعنى القوي، كإسم موصوفٍ حقيقي. وهكذا، ومنذ الفصل الثاني من المعطيات المباشرة، يكون الرقم تعددية، ما لا يعني نفس ما تعنيه تعددية الأعداد.

لماذا نشعر بأنّ هذا الاستخدام للتعددية، كإسم موصوفٍ، هو في الآن عينه، شاذٌ وغير مألوفٍ؟ يكمن السبب في أنّنا، بقدر ما نستخدم الصفة متعدد، لا نفعل سوى التفكير بمحمولٍ (مسند) نضعه بالضرورة في علاقةٍ تعارضٍ وتكاملٍ مع المحمول واحد: الواحد والمتعدّد، الشيءُ هو واحدٌ أو متعدّدٌ، بل حتّى هو واحدٌ ومتعدّدٌ.

على العكس من ذلك، حين نستخدم الاسم الموصوف تعددية، نشير سلفاً إلى أنّنا تجاوزنا تعارض المحمولين واحد-متعدد، وأنّنا استقرّينا سلفاً في حقلٍ آخرٍ، وفي هذا الحقل أمسينا ملزّمين بأنّ نميّز بين أنماطٍ من التعدديات.

بمعنى آخر، تتضمّن مقولة التعددية مأخوذةً كموصوفٍ انزياحاً للفكر بأكمله: بدل التعارض الديالكتيكيّ للواحد والمتعدّد، نضع الاختلاف التيبولوجيّ (التصنيفيّ) بين التعدديات. وهذا، بالفعل، ما يفعله برجسون: لا يكفّ في كلّ مؤلّفه عن رفض الديالكتيك بوصفه فكراً مجرداً، كما الحركة الخاطئة التي تذهب من متعارضٍ إلى آخر، من الواحد إلى المتعدد، وبالمثل إلى الواحد، ولكّنها، كذلك، تترك ماهية الشيء يفلت منها، أي الكم [المقدار]. لهذا السبب، رفض في الطاقة الخلّاقة (الفصل الثالث) السؤال: هل "الوثبة الحيوية" واحدةٌ أم متعدّدة؟ فالوثبة الحيوية، كالديمومة، ليس واحدةٌ ولا متعدّدة، بل نمطٌ تعدديّ. أيضاً، المحمولان واحد ومتعدد يعتمدان بحدّ ذاتهما على مقولة التعددية، ولا ينسجمان تحديداً إلاّ مع النمط الآخر من التعددية، أي مع التعددية التي تتمايز عن تعددية الديمومة أو الوثبة الحيوية: "إنّ الوحدة والتعددية المجردان مثل تحديداتٍ للمكان espace أو فئاتٍ للفهم".

إذاً، يوجد نمطان من التعددية: واحدةٌ تُسمّى تعددية التجاور، وتعددية رقمية، وتعددية متمايزة وتعددية راهنة، وتعددية مادية، ولها، كما رأينا، كمحمولاتٍ: الواحد والمتعدد في الآن عينه. وأخرى هي تعددية نفاذٍ، وتعددية كيفية، وتعددية ملتبسة، وتعددية افتراضية، وتعددية منظّمة، وهي ترفض

أيضاً محمول الواحد كما محمول الهُو هُو. من الواضح أنه يسهل التعرف في هذا التمييز بين تعدديتين على التمييز بين المكان والديمومة؛ ولكن ما يهَمُّنا أنْ مبحث المكان-الديمومة، في الفصل الثاني من المعطيات المباشرة، لم يُقدِّم إلا بالاعتماد على مبحثٍ سابقٍ على التعدديتين وأعمق منهما: "يوجد جنسان مختلفان جداً من التعددية"، التعددية الرقمية التي تستتبع الحيز كشرطٍ من شروطها، والتعددية الكيفية التي تستتبع الديمومة كشرطٍ من شروطها.

ملاحظة: للتعدديات الرقمية بعدان: مكانٌ وزمنٌ؛ وللتعدديات الأخرى: ديمومة وامتداد قبلمكاني.

ولكنَّ برجسون يبدأ بدراسة التعدديات الرقمية. وأعتقد بأنَّ دراسته تتضمن مبدأً فريداً لغاية: لا توجد فقط تعددية أعدادٍ، بل كلِّ عددٍ هو تعددية، وحتى الوحدة l'unité تعددية. ومن هنا تتولد ثلاث أطاريح، أقوم فقط بتلخيصها:

- 1- إختزال الرقم إلى مقولاتٍ أصلية cardinales حصراً: العدد بوصفه تجميعية وحداتٍ، والتعريف الرتبِّي ordinalه لعددٍ تجميعية هو برانِّي محضٌ أو اسميٌّ، وليس للحساب العدديّ غايةً أخرى سوى العثور على اسم العدد المفكّر به قبلئذٍ.
- 2- المكان بوصفه شرط العدد، وهو مكانٌ مثاليٌّ، والزمنُ الذي يتدخّل في السلسلة الرتبية لا يتدخّل إلاّ ثانويّاً، وكزمنٍ مُمكنٍ spatialisé، أي كمكانٍ تتابعٍ.
- 3- ديمومية الوحدة؛ ذلك لأنّ عدداً ما ليس وحدةً إلاّ عبر التضامّ الأصليّ، أي عبر الفعل البسيط للذكاء الذي يعتبر التجميعية كلاً؛ ولكن التضام ليس وحده ما يرتكز على كثرة وحداتٍ، بل ليس كلّ وحدةٍ، عبر الفعل البسيط الذي يدركها، إلاّ، وبالعكس، متعددة في ذاتها عبر تفرعاتها التي يرتكز التضامُّ عليها. بهذا المعنى حقاً يكون كلّ عددٍ تعدديّة متمايزة. وعن ذلك تتولد نتيجتان أساسيتان: في الآن عينه الذي ينتمي فيه الواحد والمتعدد إلى تعددية رقمية، كذلك يفعل المنقطع والمتصل. يصفُ الواحد أو المنقطع الفعل اللامنقسم الذي نتصوّر به عدداً، ومن ثمّ عدداً آخرًا؛ ويصف المتعدد

أو المتّصل، وبالعكس، المادة المتضامّة (الدائمة لانهائياً) عبر هذا الفعل. ها إذاً كيف تُعرّف التعدديات الرقمية، وبطريقة ما فهي التي تولّد المكان.

ولكن، يوجد أمرٌ غريب. ظهر المعطيات المباشرة سنة 1889، وفي سنة 1891 ظهر فلسفة الحسابة لهوسرل. اقترح هوسرل في كتابه هذا نظريةً للأعداد: وفيها يؤكّد الطابع الأصليّ حصراً للعدد، والتضام كتأليفٍ للعدد، والطابع المنقسم للوحدة. إذا اختلف عن برجسون، فبخصوص علاقة التضام مع المكان فقط، وقد اعتقد هوسرل أنّ التضام مستقلٌّ عن الحدس المكانيّ. ولكن حتّى حدّة هذا الاختلاف نفسه تُخفّف فعلياً إذا أخذنا بالحسبان مقول المكان المثالي عند برجسون، ليس المكان كخاصية للأشياء، بل كترسمية فعلٍ، أي تأليف عقليّ أصيلٍ وغير قابلٍ للاختزال. إذاً، يوجد توازٍ مدهشٌ. وأيضاً، يعتبر هوسرل بدوره العددَ نمطاً من التعددية.

كما أنّ هذا النمط من التعددية وهو العدد، يعارضه هوسرل بنمطٍ آخرٍ: عندما أدخل غرفةً وأرى أنّه يوجد "الكثير من العوالم"، وحين أنظر إلى السّماء وأرى "الكثير من النجوم، أو شجر الغابة"، أو سلسلة أعمدةٍ في معبد. هنا، لا يوجد فعلياً تعدديةً رقمية: ففي انبثاقه نفسه يعرض تراكمٌ شمسيّ علامةً تجعله يُعرّف كتعددية، وكتعدديةٍ من نمطٍ آخرٍ كلياً غير التعددية الرقمية، من دون تضامٍ بيّن: إنّها تعددية "مضمّنة"، تعددية كيفية.

ويتحدّث هوسرل عن "سماتٍ شبه كيفية"، أو عن تعددية منظمّة، أو "عناصر رسومية". إنّها خاصية الكلّ Tout الذي لا ينفصل البتّة، كما أسلفنا، عن عناصره، ولكنّه الذي يدخل، مع هذه العناصر، بعلاقاتٍ معقّدةٍ مختلفةٍ كلياً عن علاقاتٍ تجميعيةٍ رقمية مع عناصرها. ولا يتردّد هوسرل في ذكر مثل النغمة. من الجليّ هنا أنّ هوسرل ينضمّ إلى أعمال معاصره ارنفلس Ehrenfels الذي تحدّث، في 1890، عن كفيات-شكلٍ Gestalten متمايزة عن الكفيات الخاصة لعناصر نظامٍ غيرها، وبالأخصّ، وعلى نحوٍ مباشر، أعمال ستامف Stumpf الذي استدعى مقولة الاندماج

Verschmelzung ليعين ضرباً من التأليف السلبي (غير العقلي)، أي تمييز كفيات من نظام أعلى من نظام العناصر.

ها هي، إذا، التعددية غير الرقمية. ولكن هذا يبدو بعيداً عن برجسون. ومع ذلك، ليس بعيداً بالمرّة: في الفصل الثاني من معطيات مباشرة، يمكن لدقات الساعة أن تدخل في تعددية رقمية. ولكن حين أكون مشتت الذهن، ماذا يحصل؟ تتلاشى في تعددية كيفية غير رقمية. تعددية انصهار، وتنافذ interpenetration. صحيح أنه يحكى عند برجسون عن انصهار، ولكن لا نجد ذلك أبداً عند هوسرل، ولا ستامف، اللذين يلاحظان أنه متى ازدادت العناصر، تصيح نوبات النغمة ملحوظة أكثر.